الفصل السابع

انفصال اوثر عن روما

يقف لوثر في مقدمة من دعوا الى اخراج الكنيسة من ظلمة البابوية الى نور ايمان انقى. كان رجلا غيورا متحمسا متعبدا لا يعرف خشية الناس بل يخاف الله، ولا يعترف بأساس آخر للايمان والعقيدة الدينية غير الكتاب المقدس، كان رجل عصره، وعن طريقه أتم الله عملا عظيما لاصلاح الكنيسة وانارة العالم.

وكالبشيرين الأولين الكارزين بالانجيل برز لوثر من بين احضان الفقر، عائشا سني طفولته في بيت فلاح الماني وضيع. وقد كد أبوه وتعب في العمل في المناجم لكي يكفل له تهذيبا لائقا. كان يريد أن يصير ابنه محاميا، لكنّ الله قصد أن يجعله بنّاء في الهيكل العظيم الذي كان يرتفع ببطء شديد مدى العصور. كانت المشقات والحرمان والتدريب القاسي هي المدرسة التي فيها أعدت الحكمة اللامتناهية لوثر لرسالة حياته المهمة.

كان والد لوثر رجلاً ثاقب الذهن، قويم الخُلق، ثابت العزم، شريفاً ومستقيما. وكان أمينا لاقتناعه بالواجب مهما تكن النتائج. وقد جعله رشادُه ينظر الى نظام الرهبنة بكثير من الشك والارتياب، فغضب جدا عندما دخل لوثر الدير

من دون رضاه. ومرت سنتان قبل ان يتصالح مع ابنه. وحتى في ذلك الحين ظلت نظرته الى الرهبنة كما كانت فلم تتغير.

وقد حرص والدا لوثر حرصا عظيما على تربية اولادهما وتهذيبهم. وحاولا أن يعلماهم معرفة الله وممارسة الفضائل المسيحية. وقد سمع الابن أباه وهو يصلي طالبا أن يذكر ابنه اسم الرب وأن يساعد في يوم من الأيام على نجاح حقه وتقدمه. وكانا تواقين الى حسن استغلال كل ميزة أدبية أو فكرية اتيحت لهما خلال حياة الكد التي عاشاها. وانصبت جهودهما بجدية ومثابرة على إعداد اولادهما لحياة التقوى والنفع. وكانت صلابتهما وقوة خلقهما تجنحان بهما احيانا الى القسوة البالغة. لكنّ المصلح نفسه، مع شعوره بأن أبويه قد أخطآ في بعض النواحي، وجد في تربيتهما اشياء تستحق المديح أكثر مما تستحق الادانة والتوبيخ.

عومل لوثر في المدرسة التي أرسل اليها في حداثته بالفظاظة والقسوة. وكان أبواه فقيرين جدا بحيث أنه في ذهابه من البيت الى المدرسة في بلدة أخرى كان مضطرا احيانا الى أن يحصل على طعامه بواسطة الغناء من باب الى باب، وكثيرا ما كان يحس بآلام الجوع. والافكار الدينية الخرافية الكئيبة التي كانت سائدة آنئذ ملأته خوفا، فكان يضطجع في الليل وقلبه مثقل بالحزن وهو ينظر الى المستقبل المظلم برعب دائم من التفكير في الله كديان عبوس قاسي القلب وطاغية لا يرحم، بدلا من التفكير فيه كالآب السماوي الرحيم .

ومع ذلك فأمام تلك الخيبات الكثيرة والعظيمة تقدم لوثر بعزم صادق صوب التفوق الاخلاقي والعلمي الذي استهوى نفسه. لقد ظمئت نفسه الى المعرفة، وقاده ذهنه العملي الحاد الى اشتهاء الامور الثابتة النافعة، لا السطحية الجميلة المظهر.

وعندما التحق بجامعة ارفرت في الثامنة عشرة من عمره كان مركزه مشجعا مؤاتيا وصارت آماله وامنياته اعظم اشراقا مما كانت في سني الصبا. واذ

جد ابواه واقتصدا استطاعا أن يؤمنا له كل المساعدة التي كان يحتاج اليها. وقد خفف تأثير الاصدقاء الحكماء قليلا من وقع تربيته العابسة. وعكف على دراسة مؤلفات اقدر الكتّاب. وكان بكل اهتمام وجد يختزن في عقله أرجح الآراء، جاعلا حكمة الحكماء تراثا له. وحتى تحت التدريب الصارم الذي تلقاه من معلميه السابقين قدم البرهان في وقت مبكر على امتيازه وتفوقه. وبفضل المؤثرات المؤاتية نما ذهنه بسرعة. هذا، وإن ذاكرته الواعية وخياله النشيط وقوى المحاجة القوية والمثابرة التي لا تكل سرعان ما قفزت به الى المكانة الأولى بين اترابه. وقد شحذ التدريب العقلي ذكاءه وأيقظ نشاطه الذهني وحدة ادراكه. وكان كل ذلك يعده للنضال في المستقبل.

كان قلب لوثر عامرا بخوف الله، وهذا أعانه على الاحتفاظ بثباته في غرضه وقاده الى الاتضاع العميق أمام الله. وكان في نفسه احساس دائم بوجوب الاعتماد على معونة الله، فلم يهمل أن يبدأ يومه بالصلاة، بينما كان قلبه يخفق دائماً بطلب الارشاد والعون. وكثيراً ما كان يقول: «الصلاة المخلصة لازمة للدرس والتحصيل» (٤٦).

واذ كان لوثر في احد الأيام يفحص بعض الكتب في مكتبة الجامعة وجد كتابا مقدسا مكتوبا باللاتينية. ولم يسبق له أن رأى مثل ذلك الكتاب، وكان يجهل تماما حتى مجرد وجوده. كان قد سمع بعض فصول من الانجيل والرسائل كانت تتلى على الشعب في العبادة العامة، وكان يظن انها هي كل الكتاب. اما الآن فها هو لأول مرة يرى كل كلام الله بين دفتي كتاب. فبرهبة ممتزجة بالدهشة جعل يقلب صفحات ذلك السفر المقدس. واذ كانت نبضاته تسرع وقلبه يخفق بدأ يقرأ لنفسه كلام الحياة. كان بين الحين والآخر يتوقف ليصرخ قائلا: «ليت الله يعطيني هذا الكتاب ليكون ملكي الخاص!» (٤٧). وكان ملائكة السماء واقفين الى جواره، وانحدرت من عرش الله أشعة من النور لتكشف لعقله كنوز الحق. وكان دائما يخشى أن يغضب الله، أما الآن فان الاقتناع العميق بأنه خاطئ استولى عليه كما لم يحدث من قبل.

يتوق الى السلام مع الله

هذا وان رغبته الحارة في التحرر من الخطيئة والحصول على السلام مع الله قادته اخيرا الى دخول احد الاديرة وتكريس نفسه لحياة الرهبنة. وفي ذلك الدير طُلب منه ممارسة أحط الوان الكدح المذل فيذهب من بيت الى بيت مستجديا أهل الاحسان. وكان اذ ذاك في سن تجعل الانسان يتوق الى الظفر باحترام الناس وتقديرهم. لكنّ هذه الممارسات الحقيرة كان فيها قدر كبير من الاماتة لمشاعره الطبيعية. وتحمل هذا الاذلال بصبر اذ كان يعتقد أنه ضروري له بسبب خطاياه.

كان ينفق في الدرس كل لحظة تتاح له بعد اداء واجباته اليومية، حارما نفسه النوم بل مستكثرا عليها الدقائق التي كان يقضيها في تناول طعامه البسيط. وكان يفرح بدرس كلمة الله أكثر من فرحه بأي شيء آخر. فقد وجد كتابا مقدسا مربوطا بالسلاسل الى جدران الدير فكان يذهب الى هناك كثيرا. واذ تعمق في نفسه التبكيت على الخطيئة إجتهد في الحصول على الغفران والسلام عن طريق أعماله الذاتية. وعاش عيشة غاية في الصرامة، محاولا بواسطة الصوم والصلوات التي كان يتلوها في الليل والجلد الذي كان يفرضه على نفسه أن يقهر شر طبيعته الذي لم تستطع حياة النسك ان تحرره منه. ولم يتراجع أمام أي تضحية يبلغ بواسطتها الى طهارة القلب التي قد توقفه مبَّررا أمام الله. وقال فيما بعد : « لقد كنت في الحق راهبا تقيا وأتبعت قوانين رهبانيتي بدقة اعجز عن التعبير عنها. ولو أُعطي لراهب أن يرث السماء بأعمال النسك التي يمارسها لكان لي الحق في امتلاكها ... ولو استمرت على ذلك مدة أطول لأودى بي قمع الجسد واذلال النفس الى الموت » (٤٨). وكان من نتائج هذا النظام المؤلم أن خارت قواه وقاسى كثيرا من جراء تشنجات اغمائية لم يشفَ منها شفاء كاملا. ولكن مع كل تلك الجهود لم تجد نفسه المثقلة راحة. وأخيرا انساق الى حفاة اليأس.

عندما بدا للوثر أن كل أمله قد ضاع دبر له الله صديقا ومعينا. ذلك أن ستوبتز التقي فتح ذهن لوثر أمام كلمة الله وأمره بأن يحول نظره بعيدا من نفسه ويترك التفكير في القصاص الابدي لأجل انتهاك شريعة الله وينظر الى يسوع المخلص غافر الخطايا. ثم قال له: «بدلا من تعذيبك نفسك لأجل خطاياك ألق بنفسك بين ذراعي الفادي. ثق به، في بر حياته وكفارته وموته... اصغ الى ابن الله. لقد صار انسانا ليمنحك يقين الرضى الالهي». «أحب ذاك الذي أحبك قبلا» (٤٩). هكذا تكلم رسول الرحمة ذاك فأثر كلامه في عقل لوثر تأثيرا عميقا. فبعد مصارعات كثيرة وطويلة مع أخطائه التي احتضنها طويلا استطاع فهم الحق، فحل السلام في نفسه المضطربة.

استاذ في الجامعة

كان لوثر قد سيم كاهنا ودُعي للخروج من الدير ليكون استاذا في جامعة وتنبرج. وهناك عكف على دراسة الكتاب المقدس في لغاته الاصلية. ثم بدأ يلقي محاضرات عن الكتاب المقدس. وشرح سفر المزامير والأناجيل والرسائل لجماهير الناس الذين كانوا يستمعون اليه بسرور وشغف، وقد ألح عليه ستوبتز صديقه ورئيسه أن يعتلي المنبر ويعظ بكلمة الله. لكن لوثر تردد شاعرا في نفسه بعدم استحقاقه مخاطبة الشعب نيابة عن المسيح. ولكن بعد صراع طويل خضع واستجاب لتوسلات اصدقائه. كان قد صار مقتدرا في الكتب واستقرت عليه نعمة الله. وقد أسرت فصاحته الباب سامعيه. وكان الوضوح والقوة اللذان بهما قدم الحق كافيين لاقناع العقول، فلمست غيرته قلوبهم.

كان لوثر لا يزال ابنا امينا للكنيسة البابوية، ولم يكن يفكر في أن يكون غير ذلك. وقد رتبت له عناية الله أن يزور روما. وتابع رحلته سائرا على قدميه. وكان يبيت في الاديرة التي كانت في طريقه. وفي أحد اديرة ايطاليا شاهد من مظاهر الثراء العظيم والفخامة والترف ما جعله يمتلئ دهشة. فلما كان الرهبان يحصلون على ايراد من الأمراء كانوا يسكنون غرفا فخمة ويرتدون أغلى الحلل وأجملها

ويأكلون أشهى الأطعمة من الموائد الحافلة بأفخر طعام. فاستبدت الهواجس المؤلمة بنفس لوثر وجعل يقارن بين هذا المنظر وانكار الذات والمشقات التي حفلت بها حياته، فارتبك عقله.

على درج بيلاطس

أخيراً رأى من بُعد المدينة المبنية على سبع تلال. فانطرح على الأرض هاتفاً بانفعال عميق: «يا روما المقدسة، أني احييك» (٥٠). ثم دخل المدينة وبدأ يزور الكنائس وكان يصغي الى القصص العجيبة التي كان يرددها الكهنة والرهبان، ثم قام بممارسة الطقوس المفروضة. وانى ذهب كان يرى المناظر التي ملأته دهشة ورعبا اذ رأى الاثم متفشيا بين كل طبقات الاكليروس، وسمع من الاساقفة نكاتا شائنة فامتلأت نفسه رعبا اذ رأى نجاستهم حتى في أثناء اقامة القداس. واذ اختلط بالرهبان والشعب رأى الاسراف والدعارة. وأينما يتجهّْ يجدْ النجاسة في موضع القداسة. وقد كتب يقول: «لا يستطيع أحد أن يتصور مقدار شناعة الأمور المخجلة التي تُرتكب في روما، ولا يصدق بوجودها الا من رأوها بأعينهم. وقد صار أمرا عاديا أن يقول الناس: اذ كان هنالك جحيم فان روما مبنية فوقها. انها بؤرة تخرج منها كل الخطايا» (٥١).

وكان قد صدر مرسوم بابوي بمنح الغفران لكل من يصعدون «سلم بيلاطس» على ركبهم، تلك السلم التي قيل ان المخلص نزل دركاتها عندما خرج من دار الولاية الروماني، وأنها قد نُقلت من اورشليم الى روما بمعجزة. وفي أحد الايام كان لوثر يرقى درجاتها بخشوع، وفجأة دوى صوت كالرعد بدا كأنه يقول: «البار بالايمان يحيا» (رومية ١: ١٧). فنهض على قدميه وأسرع خارجا من ذلك المكان في خزي ورعب. ولم تفقد تلك الآية قوتها أو سلطانها على نفسه ابدا. ومن ذلك الحين رأى بكل جلاء، أكثر مما سبق له أن رأى، ضلالة الإركان الى الاعمال البشرية لأجل الخلاص، ولزوم الايمان الدائم باستحقاقات المسيح. لقد انفتحت عيناه ولم تغلقا ابدا بعد ذلك على تضليل خدع البابوية. وعندما حوَّل

وجهه بعيدا من روما حول قلبه كذلك عنها، ومنذ ذلك الحين زاد الانفصال اتساعا الى أن انفصمت وقُطعت كل علاقة له بالكنيسة البابوية.

بعدما عاد لوثر من روما حصل من جامعة وتنبرغ على درجة دكتوراه في اللاهوت. والآن صارت له الحرية في أن يكرس نفسه للكتاب المقدس الذي أحبه تكريسا أشد من ذي قبل. لقد أخذ على نفسه عهدا مقدسا بأن يدرس بعناية كلمة الله ويبشر بأمانة بها لا بأقوال البابوات وتعاليمهم، وأن يفعل ذلك مدى أيام حياته. فلم يعد مجرد راهب أو استاذ بل الناطق المفوّض بإسم الكتاب. وكراعٍ دُعي الى إطعام القطيع اذ كانت تلك الخراف جائعة وظامئة الى الحق. وقد أعلن بكل ثبات أن على المسيحيين الا يقبلوا تعاليم لا تستند الى سلطان الكتب المقدسة. وكانت هذه الأقوال ضربة أصابت سيادة البابا، واشتملت على مبدأ الاصلاح.

رأى لوثر خطر تعظيم النظريات البشرية فوق كلمة الله. ومن دون خوف هاجم النظريات الالحادية التي يعتنقها ويعلم بها رجال التعليم. وقاوم الفلسفة والعلوم اللاهوتية التي ظلت مسيطرة على الشعب طويلاً. وفضح مقولاتهما التي كانت وبيلة في تأثيرها، فضلاً عن تفاهتها وعدم جدواها. وحاول أن يحول عقول سامعيه عن سفسطات الفلاسفة واللاهوتيين الى الحقائق الابدية المدونة في كتب الانبياء والرسل.

كانت الرسالة التي ابلغها الى الجموع المتلهفة المتعلقة بأقواله ثمينة ومحيية. لم يسبق لهم أن سمعوا مثل تلك التعاليم. ان بشرى محبة المخلص ويقين الغفران والسلام بدمه المكفر ملأت قلوبهم فرحا والهمتهم رجاء أبديا. لقد أشعل في وتنبرغ نور كان مقدَّرا له أن يمتد الى أقصى الأرض ويزيد لمعانا ولألاء الى انقضاء الدهر.

لكنّ النور والظلمة لا ينسجمان، فبين الحق والضلال يشتعل أوار حرب لا تخمد أبدا. وإن رفع انسان راية أحدهما ودافع عنه فلا بد أن يهاجم الآخر ويهدمه

. ولقد أعلن مخلصنا نفسه قائلا : « ما جئت لالقي سلاما بل سيفا » (متى ١٠: ٣٤). وقال لوثر بعد بدء الاصلاح بسنين قليلة: «ان الله لا يقودني بل يدفعني الى الامام . انه يحملني بعيدا. فأنا لست سيد نفسي. أنا أحب أن اعيش في راحة وسكون، ولكني قد ألقي بي في وسط الشغب والضوضاء والثورات » (٥٢). وكان مقيَّضا له وقتئذ أن يُزج به في وسط المعمعة.

تتزل وصكوك الغفران

كانت كنيسة روما تتجرَ بنعمة الله. لقد وضعت موائد الصيارفة (متى ٢١: ١٢) في جوار مذابحها، وكانت تتردد في أماكن العبادة صرخات من كانوا يشترون ويبيعون، وكانت صكوك الغفران تُعرض للبيع جهارا بسلطان بابا روما بحجة جمع الأموال لبناء كنيسة القديس بطرس في روما. بثمن الجرائم كان سيقام هيكل لعبادة الله، وكان حجر الزاوية سيوضع بأجرة الاثم، لكن الوسائل نفسها المستخدمة لتعظيم روما كانت فيها الضربة القاضية على سلطانها وعظمتها. هذا ما أهاج ضد البابوية ألد أعدائها إصرارا وأعظمهم نجاحا، وأدى الى الحروب التي هزت العرش البابوي والتاج المثلث الموضوع على رأس البابا.

كان الموظف المكلف بيع صكوك الغفران في المانيا، وأسمه تتزل، متهما بأحط أنواع الجرائم ضد المجتمع وشريعة الله. ولكن بما أنه قد نجا من القصاص الذي كان يستحقه بسبب جرائمه استُخدم في ترويج المشاريع التجارية السالفة من قبل البابا. فبكل جرأة ووقاحة جعل يردد أعظم الأكاذيب الخلابة ويقص القصص العجيبة ليخدع ذلك الشعب الجاهل الساذج المتمسك بالخرافات. فلو كانت في حوزتهم كلمة الله لما استطاع أن يخدعهم أحد. ولكن أخذ منهم الكتاب المقدس وحرموا منه ليظلوا خاضعين للسيادة البابوية فتزيد قوة رؤسائها وتتضاعف ثروتهم (٥٣).

كان تتزل يدخل المدن وقد تقدمه رسول يعلن قائلا: «ها نعمة الله والابُ القديس أمام أبوابكم» (٥٤). ورحب الناس بذلك الدعي المجدِّف كما لو كان هو الله نفسه نزل اليهم من السماء. وقد أقيمت تلك التجارة الشائنة في الكنيسة. فاذ أعتلى تتزل المنبر جعل يمتدح صكوك الغفران على أنها عطايا الله. وأعلن أنه بفضل شهادات الغفران التي معه تُغفر لمن يشتريها كل الخطايا التي يرغب في ارتكابها مستقبلا، وأنه «حتى التوبة لا لزوم لها» (٥٥). وأكثر من هذا فقد أكَّد لسامعيه أن لصكوك الغفران قوة لا لغفران خطايا الأحياء وحسب بل أيضا خطايا الموتى، وانه حالما ترن النقود في الصندوق تتحرر النفس التي قُدمت لأجلها من عذابات المطهر وتنطلق الى السماء (٥٦).

الالوف تقبل دعوة تتزل

عندما اعطى سيمون الساحر الرسلَ اموالا ليشتري منهم القوة على اجراء المعجزات قال له بطرس: «لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتني موهبة الله بدراهم» (اعمال ٨: ٢٠). لكنّ آلافا من الناس المتلهفين تمسكوا بعرض تتزل هذا، فكان ينصبّ في خزائنه سيل من الذهب والفضة. ان الخلاص الذي يمكن شراؤه بالمال أسهل من ذاك الذي يتطلب التوبة والايمان والمجاهدة في مقاومة الخطيئة والانتصار عليها (انظر التذييل).

ولقد قاوم رجال العلم والتقوى تعليم الغفرانات هذا في الكنيسة الرومانية، كما وجد كثيرون ممن كانوا لا يؤمنون بالادعاءات التي لا يقرها العقل أو الوحي الالهي. ولكن لم يكن هنالك اسقف واحد لديه الجرأة الكافية التي تجعله يرفع صوته محتجا على تلك التجارة الآثمة. غير ان عقول الناس كان يساورها الاضطراب وعدم الاطمئنان. وقد بدأ كثيرون يتساءلون في لهفة وشوق عما اذا لم يكن الله عازما على أن يستخدم انسانا كوسيلة لتطهير كنيسته.

ومع أن لوثر كان أعظم البابويين تعصبا، فقد امتلأ رعبا من الأدعاءات التجديفية التي تنطوي عليها المتاجرة بصكوك الغفران. كان كثيرون من المواظبين على سماع عظاته قد اشتروا بعض تلك الصكوك. وسرعان ما عادوا الى راعيهم معترفين بخطاياهم المتعددة. وكانوا ينتظرون الغفران لا لأنهم قد تابوا أو يرغبون في اصلاح حياتهم بل على أساس صكوك الغفران، فأبى لوثر أن يمنحهم الغفران، وأنذرهم أنهم ما لم يتوبوا ويصلحوا حياتهم فلا بد من هلاكهم في خطاياهم. ففي ارتباك عظيم عادوا الى تتزل يشتكون رفض معَّرفهم قبول صكوكه، وبعض منهم طلبوا اليه بكل جرأة أن يعيد اليهم نقودهم. فامتلأ الراهب غضبا وجعل يقذف أرهب اللعنات. ثم أمر باشعال نار في الميادين العامة وأعلن أنه «قد حصل على تفويض من البابا بحرق كل الهراطقة الذين يتجرأون على مقاومة صكوك الغفران المقدسة التي يبيعها» (٥٧).

بطل من ابطال الحق

باشر لوثر عمله بشجاعة كمدافع عن الحق. وسمُع صوته من المنبر وهو يوجه الى سامعيه إنذاراً حاراً مقدساً . وقد شرح للشعب ان الخطيئة كريهة جدا، وعلمهم انه يستحيل على الانسان بأعماله ان يقلل من جرمها أو يفلت من قصاصها. ولا شيء يخلص الخاطئ غير التوبة الى الله والايمان بالمسيح. ونعمة المسيح لا يمكن شراؤها، فهي هبة مجانية. ثم نصح الشعب بألا يشتروا صكوك الغفران بل ان ينظروا بالايمان الى الفادي المصلوب. واخبرهم عن اختباره المؤلم المرير في محاولته الفاشلة الحصول على الخلاص باذلاله نفسه واعماله التكفيرية، واكد لسامعيه انه قد حصل على السلام والفرح لكونه صرف نظره عن نفسه وآمن بالمسيح.

واذ ثابر تتزل على تجارته ونشر ادعاءاته الالحادية عوَّل لوثر على الاقدام على احتجاج افعل ضد هذه الفضائح الصارخة وقد عرضت لذلك فرصة مؤاتية

وسريعة. كانت توجد في كنيسة القلعة في وتنبرج كثير من الذخائر التي كانت تعرض على الشعب في بعض الايام المقدسة الخاصة، وكان يُمنح غفران كامل لكل من كانوا يزورون الكنيسة حينئذ ويقدمون اعترافاتهم. ولذلك كان الناس يفدون اليها افواجا في تلك المناسبات، ومن أهمها عيد « جميع القديسين » الذي كان قد حان ميعاده. ففي عشية العيد انضم لوثر الى تلك الجموع التي كانت في طريقها الى الكنيسة وألصق على بابها ورقة كتب عليها خمسة وتسعين برهانا ضد صكوك الغفران. وقد أعلن استعداده لمناقشة كل من يعارض هذه البراهين، ومباحثة كل من يخالفه الرأي في الجامعة في اليوم التالي.

استرعت مقترحاته انتباه الجميع. وقرئت مرارا وتكرارا في كل اتجاه فحدث اهتياج عظيم في الجامعة وفي كل المدينة. وقد برهنت هذه المباحث ان سلطة غفران الخطيئة والتجاوز عن القصاص لم تُمنح للبابا او لإنسان آخر. ان ذلك النظام كله حكاية مضحكة وحيلة لابتزاز المال بالتحايل على خرافات الشعب، وهو خدعة شيطانية لإهلاك نفوس كل من يثقون بتلك الادعاءات الكاذبة. وتبرهن بكل وضوح ايضا ان انجيل المسيح هو اثمن ذخر في الكنيسة، وان نعمة الله المعلنة فيه موهوبة مجانا لكل من يطلبونها بتوبة وايمان.

رسالته تهز ألمانيا

تحدَّت مباحث لوثر كل جدال فلم يجسر أي انسان على قبول ذلك التحدي. وفي خلال ايام قليلة انتشرت الاسئلة التي اقترحها في جميع انحاء المانيا، وبعد اسابيع قليلة رنّت في كل العالم المسيحي. وكثيرون من البابويين الاتقياء الذين رأوا الاثم متفشيا في الكنيسة وحزنوا لذلك ولكن لم تكن في يدهم حيلة لدفعه او وقف تقدمه فرحوا فرحا عظيما بعدما اطلعوا على تلك المقترحات متحققين ان فيها صوت الله. وقد احسوا بأن الرب في رحمته قد مدَّ يده ليوقف ذلك السيل المندفق من الفساد الخارج من الكرسي البابوي في

روما. وفرح الامراء والحكام في قلوبهم لان صدمة قوية اصابت ذلك السلطان المتغطرس الذي انكر على الشعب حق المعارضة او الاحتجاج على قراراته .

أما جموع الناس الذين كانوا يحبون الخطيئة ويؤمنون بالخرافات فقد ارتعبوا اذ رأوا المغالطات التي كانت قد اسكتت مخاوفهم وقد اكتُسحت. واما رجال الأكليروس الماكرون الذين اوقفوا عن عملهم في إباحة ارتكاب الجرائم فإذ رأوا ان ارباحهم مهددة بالخطر تملكهم سخط عظيم، واجتمعوا ليسندوا ادعاءاتهم ويؤيدوها، فكان على ذلك المصلح ان يجابه متهميه واعداءَه الالداء. وقد اتهمه بعضهم بانه يعمل بدافع العداء وبعض النزعات الاخرى. كما اتهمه آخرون بالغطرسة، واعلنوا ان الله لم يوجهه بل هو يعمل بدافع الكبرياء والجرأة. فأجاب قائلا: « من ذا الذي لا يعرف ان الانسان نادرا ما يتقدم برأي جديد من دون ان تظهر عليه بعض مظاهر الكبرياء او ىُتهم بأنه يخلق المشاحنات؟ ولماذا مات المسيح وكل الشهداء؟ لانه بدا وكأنهم قوم متكبرون يحتقرون حكمة زمانهم، وينشرون بدعاً من دون أن يتواضعوا بطلب المشورة من وحي الآراء القديمة » .

ثم أعلن قائلا: « ان كل ما افعله لن استرشد فيه حكمة الناس بل مشورة الله، فان كل العمل عمل الله فمن ذا الذي يستطيع ان يوقفه؟ وان لم يكن كذلك فمن يستطيع أن يمضي به قُدُماً؟ ليكن لا ما أريد أنا ولا ما يريدون هم، لا مشيئتنا بل مشيئتك انت ايها الآب القدوس الذي في السماء» (٥٨).

محاربات شديدة

ومع ان لوثر كان مسوقا بروح الله ليبدأ عمله فلم يكن ليشرع فيه من دون محاربات شديدة. فتعييرات اعدائه وسوء تصويرهم مقاصده وتعليقاتهم الجائرة الماكرة على اخلاقه وبواعثه انقضّت عليه كسيل جارف، ولم تكن عديمة الاثر. لقد كان واثقا بأن قادة الشعب في الكنيسة وفي دور العلم سينضمون اليه في السعي نحو الاصلاح. وكلام التشجيع من الذين كانوا يحتلون مراكز سامية

الهمه فرحا ورجاء. كما الهمه شعوره بأنه سيرى أياما اصفى وأشد لمعانا يفيض نورها على الكنيسة. فاذا بالتشجيع يستحيل تعييرا وإدانة. فكثيرون من ذوي المقامات الرفيعة في الكنيسة والدولة اقتنعوا بصدق مباحثه، ولكنهم سرعان ما رأوا ان قبول هذه الحقائق يتطلب تغييرات وانقلابات عظيمة. ذلك ان تنوير الشعب واصلاحه سيكون في الواقع تقويضا لسلطان روما وسيوقف الكثير من موارد الثروة التي تتدفق في خزانتها، وهذا بالطبع سيقلل من اسراف الرؤساء البابويين وترفهم. زد على ذلك أن تعليم الشعب ان يفكروا ويتصرفوا كخلائق مسؤولة، ناظرين الى المسيح وحده لاجل الخلاص، لا بد أن يطيح عرش البابا، ويقضي في النهاية على سلطته. فلهذه الاسباب رفضوا المعرفة المعطاة لهم من الله واصطفوا ضد المسيح والحق بمقاومتهم الرجل الذي ارسله لانارتهم.

ارتعب لوثر وهو ينظر الى نفسه: رجل واحد يتصدى لمقاومة اعظم قوات الارض. كان احيانا يشك في ما اذا كان يسير حسب ارشاد الله للتصادم مع سلطة الكنيسة. وقد كتب يقول: « من اكون انا حتى أقاوم سيادة البابا الذي ترتعد امامه ملوك الارض في كل العالم؟... ليس من يعرف كم قاسى قلبي وتألم في اثناء هذين العامين الاولين، ولا مقدار اليأس والقنوط الذي غصت فيه » (٥٩). ولكنه لم يُترك لليأس لتخور عزيمته تماما. فعندما خذلته المعونة البشرية نظر الى الله وحده وعلم انه يستطيع الاستناد الى ذراعه الكلية القدرة باطمئنان تام.

الكتاب المقدس فقط

وقد كتب لوثر لأحد اصدقاء الاصلاح يقول: « لا يمكننا ان نفهم الكتب المقدسة بالدرس او بالعقل. ان أول واجب تقوم به هو أن تبدأ بالصلاة. توسل الى الرب أن يمنحك من فرط رحمته العظيمة الفهم الحقيقي لكلمته. لا يوجد مفسر لكلمة الله غير مؤلفها ومبدعها لانه هو نفسه قد قال: ويكون الجميع متعلمين من الله. لا تنتظر شيئا من جهودك الخاصة او فهمك بل ثق بالله تماما

وبتأثير روحه. ثق بهذا بناء على كلمة انسان مجرّب» (٦٠). هنا درس ذو أهمية حيوية للذين يحسون أن الله قد دعاهم ليقدموا الى الآخرين الحقائق المقدسة في عصرنا هذا. ان هذه الحقائق ستثير عداوة الشيطان والناس الذين يحبون الخرافات التي قد ابتكرها. ففي الصراع مع قوات الشر تدعو الحاجة الى اكثر من القوة العقلية والحكمة الانسانية.

عندما لجأ الاعداء الى العادات والتقاليد او الى تصريحات البابا وسلطانه واجههم لوثر بالكتاب من دون سواه. ففي الكتاب حجج لم يستطيعوا الاجابة عنها. ولهذا صرخ عبيد الطقوس والخرافات طالبين سفك دمه كما طلب اليهود سفك دم المسيح. فقد صاح البابويون المتعصبون قائلين: « انه هرطوقي، انها خيانة عظمى للكنيسة ان نسمح لهذا الهرطوقي الفظيع ان يعيش ساعة واحدة بعد الآن. فلتنصب له المشنقة في الحال » (٦١). لكنّ لوثر لم يسقط فريسة غضبهم الجنوني. فلقد أبقى له الله عملا يقوم به، وارسلت ملائكة السماء لحراسته. ومع ذلك فان كثيرين ممن قبلوا من لوثر النور الثمين صاروا هدفا لغضب الشيطان، ولأجل الحق احتملوا العذاب والموت بلا خوف.

استرعت تعاليم لوثر اهتمام المفكرين ذوي الالباب في كل انحاء المانيا. فمن عظاته وكتاباته انبثق النور الذي أيقظ آلاف الناس وأنارهم. لقد بدأ الايمان الحي يحتل مكان الممارسات الطقسية الميتة التي ظلت الكنيسة متمسكة بها طويلا. وكان الناس يوما بعد يوم يفقدون ثقتهم بخرافات البابوية. وبدأت حواجز التعصب تُنقض وتتلاشى. وكلمة الله التي امتحن بها لوثر كل عقيدة وكل ادعاء كانت تشبه سيفا ذا حدين يشق لنفسه طريقا الى قلوب الناس. وفي كل مكان استيقظت الرغبة في طلب التقدم الروحي وظهر جوع وعطش الى البر لم يُر مثلهما منذ اجيال. وعيون الشعب التي ظلت امدا طويلا تتجه الى الطقوس البشرية والوسطاء الارضيين عانقت الآن المسيح بقوة وايمان، واياه مصلوبا.

يساق الى روما

هذا الاهتمام الواسع النطاق أثار مخاوف السلطات البابوية آنذاك فوصل الى لوثر أمر بالحضور الى روما لاستجوابه في تهمة الهرطقة. وملأ هذا الامر قلوب اصدقائه رعبا وهلعا. لقد عرفوا تمام هول الخطر الذي يتهدده في تلك المدينة الفاسدة التي كانت سكرى بدم شهداء يسوع، فعارضوا ذهابه الى روما وطلبوا أن يتم استجوابه في المانيا.

اجيبوا الى هذا الطلب وعُيِّن القاصد الرسولي ليستمع الى تلك القضية. وفي التعليمات التي وصلت اليه من البابا تقرّر ان لوثر قد صُنِّف في خانة الهراطقة، وقد اوصي نائب البابا بأن « يحاكمه ويقيده من دون تأخير ». واذ ظل لوثر متشبثا برأيه وعجز مبعوث البابا عن القبض عليه شخصيا فقد اعطي السلطان بأن « يُحرم لوثر من حماية القانون وان تصادر امواله وممتلكاته في انحاء المانيا كافة، وان يُنفى ويلعن ويُحرم من شركة الكنيسة جميع من لهم به صلة » (٦٢). وأكثر من هذا فقد أوصى البابا رسوله بأن يستأصل تلك الهرطقة الوبائية تماما، وأن يحرم كل مسؤول في الكنيسة او الدولة، باستثناء الامبراطور، يبدي اهمالا في القبض على لوثر واتباعه وفي تسليمهم الى انتقام روما.

هنا ظهرت روح البابوية على حقيقتها. أننا لا نرى في هذه الوثيقة أي أثر للمبادئ المسيحية أو حتى للعدالة العادية. لقد كان لوثر بعيدا من روما بعدا قاصيا ولم تُعط له فرصة لايضاح موقفه او الدفاع عن نفسه، ومع ذلك فقبل فحص قضيته حُكم عليه اجمالا بالهرطقة، وفي اليوم نفسه انذر واتهم وحوكم وصدر عليه الحكم وذلك بواسطة الاب الاقدس المتأنق السيد الوحيد والمرجع المعصوم الاوحد للكنيسة والدولة.

ميلانكثون

في هذا الوقت كان فيه لوثر في اشد الحاجة الى عطف صديق امين ومشورته ارسلت عناية الله ميلانكثون الى وتنبرج. كان هذا الانسان شابا وديعا وخجولا في عاداته فكسب حكمه الصائب وعلمه الواسع وفصاحته الآسرة، بالاضافة الى طهارة اخلاقه واستقامته، اعجاب الناس وتقديرهم جميعا. ولم يكن تألق مواهبه اكثر بروزا من رقة ميوله ومزاجه. وسرعان ما صار تلميذا غيورا جدا للانجيل وصديق لوثر الموثوق به ومعينه الفعّال. وكانت رقته وحذره ودقته مكملة لشجاعة لوثر ونشاطه. ان اتحادهما في العمل اضفى على الاصلاح قوة، وهكذا صار ميلانكثون مصدر تشجيع عظيم للوثر.

عينت مدينة اوجسبرج مكانا للمحاكمة، فسار المصلح اليها على قدميه. وقد بدأت المخاوف الجسيمة تتجمع من حوله ، وكانت تُسمع تهديدات علنية تفيد بأنه سيقبض عليه ويُقتل في الطريق ، فتوسل اليه اصدقاؤه الا يتقدم في سيره مخاطرا بحياته، بل استحلفوه بأن يترك وتنبرج الى حين ويلجأ الى من يستطيعون حمايته، لكنه رفض التخلي عن المركز الذي قد وضعه الله فيه. عليه ان يظل امينا في الدفاع عن الحق على رغم العواصف التي كانت تهب عليه وتصدمه. وهذا ما قاله: « اني أشبه ارميا الذي كان رجل خصام ونزاع. ولكن بقدر ما تزيد تهديداتهم وتتعالى صيحاتهم يتضاعف فرحي... لقد حطموا كرامتي وسمعتي. ولكن بقي شيء واحد وهو جسدي التعس المضني، فليأخذوه، فانهم بذلك يقصرون حياتي ساعات قليلة. أما نفسي فلا يستطيعون ان يمسوها. ان من يرغب في اعلان كلمة المسيح للعالم ينبغي له ان ينتظر الموت في كل لحظة » (٦٣).

اغتبط مبعوث البابا اغتباطا عظيما لدى علمه بوصول لوثر الى اجسبرج. فذلك الهرطوقي المشاغب الذي قد استرعى انتباه العالم كله بدا الآن وكأنه صار في قبضة يد روما. وقد صمم ذلك السفير على الا يدعه يفلت. وكان المصلح قد

اخفق في الحصول على صك الامان لنفسه، فألح عليه اصدقاؤه بألا يمثل أمام السفير قبل الحصول على ذلك الصك، وسعوا هم انفسهم الى الحصول عليه من الامبراطور. وقد قصد مبعوث البابا ان يرغم لوثر على التراجع إن أمكن، فان أخفق في ذلك فسيأمر بحمله الى روما ليقاسم هس وجيروم مصيرهما، ولذلك حاول عن طريق اعوانه أن يغري لوثر بالمثول امامه من دون أن يكون معه صك أمان ويسلم نفسه لرحمته. لكنّ المصلح لم يفعل ذلك فلم يمثل أمام سفير البابا الا بعد حصوله على وثيقة يلتزم فيها الامبراطور حمايته.

ومن باب السياسة والحيلة عزم البابويون على ان يحاولوا كسب لوثر بالتظاهر بالرقة واللطف نحوه. وتظاهر القاصد الرسولي في حديث مع لوثر بالود والانعطاف والصداقة نحوه، لكنه أمر لوثر أن يخضع بكل ثقة لسلطان الكنيسة ويسلم في كل نقطة بلا محاجة او تساؤل. انه لم يكن يقدر الرجل الذي كان يتعامل معه تقديرا صائبا. فأجابه لوثر بقوله انه يعتبر الكنيسة ويوقرها، وانه يرغب في الحق، وانه يريد أن يجيب على كل اعتراض ضد ما قد علَّم به، وان يُخضع تعاليمه لحكم بعض الجامعات العظيمة. ولكنه في الوقت نفسه اعترض على تصرف الكردينال اذ طلب منه ان يتراجع من دون ان يبرهن له انه على ضلال.

يحضون المصلح على التراجع

لكنّ الجواب الوحيد كان هذا: « تراجع، تراجع! » أما المصلح فأبان له انه يستند في موقفه هذا الى سلطان الكتب المقدسة، وأعلن بكل ثبات انه لا يستطيع ان يرفض الحق. فاذ لم يستطع ذلك السفير الاجابة على حجج لوثر أمطره بسيل من الفاظ التعيير والسخرية والمداهنة المحشوة باقتباسات من التقليد واقوال الآباء، وبذلك لم يعطِ المصلحَ فرصة للكلام. فاذ رأى لوثر انه لو استمر المؤتمر على هذه الحال فسيكون عقيما استطاع اخيرا ان يحصل من السفير على اذن بتقديم جوابه كتابة، وان يكن على مضض.

كتب لوثر الى صديق له يقول: « وبهذا العمل يجني المظلوم كسبا مضاعفا: اولا لأن الرسالة المكتوبة يمكن أن يطلع عليها آخرون ليحكموا للكاتب أو عليه، وثانيا لأن الانسان تكون لديه فرصة افضل للتأثير على مخاوف طاغية متكبر يهذي ويفضل بالاحرى ان يغلب بكلامه المتغطرس، وربما على ضميره أيضاً » (٦٤).

وفي الاجتماع التالي قدم لوثر تفسيرا واضحا موجزا مؤثرا لآرائه، وكان يستند في ذلك الى اقتباسات كثيرة من كلمة الله. فبعدما قرأ هذه الورقة بصوت عال سلمها الى الكردينال الذي القاها جانبا بكل احتقار معلنا انها مجموعة اقوال تافهة واقتباسات في غير محلها. وقد ثار لوثر بسبب هذا الكلام وتقدم لمواجهة المبعوث المتكبر في ميدانه، أي تقليد الكنيسة وتعاليمها، فهدم كل ادعاءاته.

وعندما رأى السفير انه ليس نداً اذ قد عجز عن الاجابة على حججه لم يستطع ضبط نفسه، ففي غضب واهتياج صاح قائلا للوثر: « تراجع والا فسأرسلك الى روما لتمثل هناك أمام القضاة المفوَّض اليهم الاطلاع على قضيتك. اني لاحرمنَّك وكل مشايعيك وكل مؤيديك ومشجعيك وسأخرجهم من الكنيسة ». واخيرا اعلن بنغمة متعجرفة غاضبة قائلا: « تراجع والا فلا ترجع ثانية » (٦٥)

انسحب المصلح واصدقاؤه على الفور، وبذلك اعلن بكل جلاء الا يُنتظر منه ان يتراجع. ولم يكن الكردينال يرمي الى ذلك. لقد كان يخدع نفسه انه بواسطة العنف والقسوة سيرعب لوثر بحيث يخضع. اما الآن وقد تُرك وحده مع مساعديه فقد جعل ينظر اليهم واحدا فواحدا. وقد اغتم غما شديدا لحبوط مؤامراته.

ولم تكن جهود لوثر في هذه المناسبة بلا نتائج حسنة. فلقد أتيحت لذلك الجمع الكبير فرصة للمقارنة بين الرجلين، وليحكموا بأنفسهم بشأن الروح التي ظهرت عند كل منهما كما بشأن قوته وصدق موقفه. وكم كان الفارق عظيماً ! لقد وقف المصلح البسيط الوضيع الثابت في ملْءِ قوة الله،

والحق الى جانبه. أما ممثل البابا فكان صلِفا معتزا بنفسه ومتشامخا وغير واقعي، ولم يقدم حجة واحدة من كلام الله، ومع ذلك ففي حمو غضبه كان يصرخ قائلا: « تراجع والا فسترسل الى روما لتنال جزاءك ».

الهروب من اوجسبرج

وعلى الرغم من أن لوثر كان بيده صك الامان فقد كان البابويون يتآمرون للقبض عليه وايداعه السجن. وتباحث اصدقاؤه معه قائلين انه من العبث ان يطيل اقامته هناك بل عليه ان يعود الى وتنبرج بلا ابطاء وان يلزم جانب الحذر الشديد لاخفاء مقاصده. ولذلك فقد غادر اوجسبرج قبل الفجر ممتطيا صهوة جواد في صحبة دليل قدمه اليه الحاكم. فسار مخترقا شوارع المدينة المظلمة الساكنة في تكتم شديد وقد اكتنفت نفسه التطيرات. اما الاعداء اليقظون القساة فكانوا يتآمرون لاهلاكه. فهل سيفلت من الاشراك المنصوبة له؟ لقد كانت تلك اللحظات لحظات جزع وصلوات حارة. وقد وصل لوثر الى باب صغير في سور المدينة فاذ فُتح له خرج منه هو ودليله من دون مانع. فما إن خرجا من المدينة سالمين حتى أسرع ذانك الهاربان يفران بعيدا. وقبلما علم السفير برحيل غريمه كان لوثر قد ابتعد عن مضطهديه. لقد انهزم الشيطان ورسله اذ افلت منهم الرجل الذي ظنوا انه قد وقع في قبضة ايديهم، نجا العصفور من فخ الصياد.

واذ علم مبعوث البابا نبأ هروب لوثر غمرته دهشة وغضب عظيمان. لقد كان يظن انه سيحصل على كرامة عظيمة لأجل حكمته وثباته في معاملة هذا الرجل الذي ازعج سلام الكنيسة، ولكن خاب امله. وقد عبَّر عن غضبه في خطاب ارسله الى فريدريك، منتخِب الامبراطور بالنيابة عن سكسونيا، فيه يتوعد لوثر ويأمر ذلك الحاكم بارساله الى روما او نفيه من سكسونيا .

وفي دفاع لوثر عن نفسه طلب ان يريه السفير او البابا اخطاءه بأدلة من الكتاب المقدس، وأخذ على نفسه عهدا مشددا بأن يهجر كل تعاليمه متى تبرهن له انها مناقضة لكلمة الله. وقد شكر الله الذي حسبه أهلا لأن يتألم من أجل هذه القضية المقدسة.

لم يكن المنتخِب يعرف الا النزر اليسير من تعاليم الاصلاح تلك، لكنه تأثر تأثرا عميقا بصدق أقوال لوثر وقوتها ووضوحها. وقد صمم فريدريك على أن يكون حاميا للوثر الى أن يثبت " خطأه. وجوابا على أمر رسول البابا قال: « ما دام الدكتور مارت قد مُثل أمامك في اوجسبرج فيجب ان نكتفي بذلك. أننا لم نكن ننتظر منك أن تحاول حمله على التراجع من دون أن تقنعه بأخطائه. ولم يخبرني احد من العلماء في كل ولايتنا بأن عقيدة لوثر كفرية أم مضادة للروح والتعاليم المسيحية أو أنها ضلالة " . وفوق ذلك فقد رفض ذلك الامير أن يرسل لوثر الى روما أو أن يطرده من ولاياته » (٦٦).

لقد رأي ذلك المنتخب أن هنالك انهيارا عاما في الروادع الاخلاقية في المجتمع. فكانت الحال تستدعي وتتطلب القيام باصلاح عظيم. فلو اعترف الناس بمطالب الله وارشاد ضمائرهم المستنيرة وأطاعوها لما كان ثمة حاجة الى الاجراءات المعقدة لكبح الجرائم ومعاقبة مرتكبيها. وقد رأى أن لوثر كان يجاهد لكي يصل الى هذه الغاية، وفرح في سره لأن تأثيرا افضل كان يفرض نفسه في الكنيسة، وقد بدأ الناس يحسون به.

اثارة الاهتمام بالكتاب المقدس

وقد رأى ايضا أن لوثر كاستاذ في الجامعة كان ناجحا جدا. لم تكن قد مضت غير سنة واحدة منذ الصق لوثر مباحثه على باب الكنيسة في القلعة، ومع ذلك فقد نقص عدد الحجاج الوافدين عليها في عيد جيمع القديسين نقصا ملحوظا. لقد حُرمت روما من عابديها وتقدماتهم، لكنّ مكان هؤلاء قد شغله اناس آخرون

وطبقة اخرى جاء افرادها الآن الى وتنبرج لا كحجاج يمجدون ذخائرها بل كطلاب يملأون قاعات العلم فيها. ان كتابات لوثر ومؤلفاته قد اضرمت في كل مكان اهتماما بالكتب المقدسة، فتقاطر الطلبة الى الجامعة لا من المانيا وحدها بل من بلدان اخرى. وبعض الشباب اذ أقبلوا على وتنبرج لأول مرة «رفعوا ايديهم الى السماء شكرا لله الذي جعل النور ينبثق من هذه المدينة كما قد انبثق من صهيون في العصور القديمة، ومنها انتشر الى ابعد الممالك» (٦٧).

ولم يكن لوثر الى ذلك الحين قد رجع عن ضلالات البابوية رجوعا كاملا، بل كان رجوعه جزئيا. ولكنه عندما كان يقارن بين الوحي المقدس والمراسيم والقوانين البابوية كان يمتلئ دهشة. وقد كتب يقول: «انني الآن ماض في قراءة مراسيم الباباوات... وانا لا اعلم ما اذا كان البابا هو المسيح الدجال نفسه ام هو رسوله، فلقد شوِّه المسيح وصلب في الباباوات الى حد كبير جدا» (٦٨). ومع ذلك ففي ذلك الحين كان لوثر لا يزال يؤيد كنيسة روما، ولم يكن يفكر في الانفصال عن شركتها.

كانت مؤلفات ذلك المصلح وتعليمه تنتشر في كل دول العالم المسيحي. وامتد العمل الى سويسرا وهولاندة، كما وجدت نسخ من مؤلفاته طريقها الى فرنسا واسبانيا. وفي انجلترا قبل الناس تعاليمه كأنها كلمة الحياة. وامتد الحق الى بلجيكا وايطاليا ايضا. لقد بدأ آلاف الناس يستيقظون من سباتهم الشبيه بالموت الى فرح حياة الايمان والرجاء.

غضبت روما واهتاجت بسبب هجمات لوثر، وصرح بعض المتعصبين من خصومه، وحتى بعض دكاترة الجامعات الكاثوليكية، أن من يقتل هذا الراهب المتمرد فلا جُناح عليه ولا اثم. وفي احد الايام اقترب الى المصلح رجل غريب وكان يخفي غدارة تحت ثيابه وسأله لماذا هو سائر هكذا وحده فأجابه لوثر قائلا: «انني بين يدي الله فهو قوتي وترسي. فماذا يصنع بي الانسان؟» (٦٩)، فاذ سمع الغريب هذا الكلام اكفهر وجهه وهرب بعيدا كمن يهرب من محضر ملائكة السماء.

كانت روما مصرة على اهلاك لوثر، لكنّ اللّه كان حصنا له ومجنّا. لقد انتشرت تعاليمه في كل مكان، «في الاكواخ والاديرة... في قلاع النبلاء وفي الجامعات وفي قصور الملوك». وفي كل مكان قام النبلاء يؤيدونه في جهوده (٧٠).

في تلك الاثناء اذ كان لوثر يقرأ مؤلفات هس وجد ان ذلك الحق العظيم، حق التبرير بالايمان الذي كان هو نفسه يحاول أن يؤيده ويعلّمه، كان هو الحق نفسه الذي اعتنقه ذلك المصلح البوهيمي. فقال لوثر: «اننا جميعا، بولس واغسطينوس وانا، قد صرنا من اتباع هس من دون ان ندري». ثم تابع كلامه قائلا: «ان اللّه بكل تأكيد سيطال العالم بقصاصه اذ بشّره ذلك الشهيد بالحق ومع ذلك فقد احرقوه» (٧١).

وفي عريضة رفعها لوثر الى امبراطور المانيا ونبلائها دفاعا عن اصلاح المسيحية كتب عن البابا يقول: « انه لامر مرعب أن يرى الانسان ذلك الرجل الذي يدعو نفسه نائب المسيح يتظاهر بأبهة ووجاهة لا يكاد يضارعه فيهما أي امبراطور. فهل هو بهذا يشبه يسوع المسكين او بطرس الوضيع؟ ان الناس يقولون عنه انه سيد العالم ! لكنّ المسيح الذي يتشدق هو بأنه نائبه قال: « مملكتي ليست من هذا العالم ». فهل يمكن أن يمتد سلطان النائب الى أبعد من حدود سلطان رئيسه وسيده ؟ » (٧٢).

وكتب عن الجامعات يقول: «اني أخشى جدا ان تكون الجامعات هي ابواب الجحيم الا اذا كانت تبذل كل جهد في شرح الكلمة الالهية المقدسة ونقشها في قلوب الشباب. واني لا انصح احدا بأن يودع ابنه في معهد لا يسود فيه الكتاب المقدس سيادة كاملة. ان كل معهد لا ينشغل الناس فيه على الدوام بدرس كلمة اللّه لا بد أن يصير فاسدا» (٧٣).

انتشرت هذه الدعوة بسرعة في كل المانيا وكان لها تأثير عظيم في الشعب. لقد استيقظت الامة كلها ونهضت جموع كثيرة لينضووا تحت راية

الاصلاح. واذ كان خصوم لوثر يلتهبون شوقا الى الانتقام الحوا على البابا في اتخاذ اجراءات حاسمة ضده. فصدر أمر بادانة تعاليمه في الحال. واعطيت للمصلح واتباعه مهلة ستين يوما اذا لم يتبرأوا من تعاليمهم بعدها فسيقع عليهم الحرم البابوي جميعا.

ازمة خانقة

كانت هذه ازمة خانقة اجتازها الاصلاح. فلمدى قرون طويلة كان حكم الحرم الذي تصدره روما يوقع الرعب في قلوب اقوى الملوك، بل لقد ملأ امبراطوريات قوية بالويل والخراب. واولئك الذين كان يقع عليهم ذلك الحكم كان جميع الناس ينظرون اليهم بخوف ورعب اذ كانوا يُبترون من معاشرة زملائهم ويعاملون على انهم طريدو العدالة، وكانوا يطاردون الى ان يُستأصلوا. ولم يكن لوثر غافلا عن العاصفة الموشكة ان تهب عليه، ولكنه مع ذلك ظل ثابتا متكلا على المسيح ليسنده ويحميه. فبايمان الشهيد وشجاعته كتب يقول: «انا لا اعلم ما الذي سيحدث ولا اكترث لذلك... لتسقط الضربة اينما تسقط فانا لست خائفا. انه لا تسقط ورقة يابسة على الارض من دون اذن ابينا. فكم بالحري يهتم بنا ويرعانا. انه امر بسيط أن يموت الانسان لأجل كلمة الله اذ ان الكلمة الذي صار جسدا قد مات هو نفسه. اننا ان متنا معه فسنحيا ايضا معه. واذ نمر بما قد مر هو به قبلنا فسنكون معه حيث هو ونعيش معه الى الابد» (٧٤).

وعندما وصلت براءة البابا الى لوثر قال: «اني ازدريها واهاجمها بصفتها إلحادية كاذبة... ان المسيح نفسه هو الذي دين بموجبها. انني افرح لأني احتمل هذه الشرور في سبيل افضل دعوة. لقد شعرت بحرية اعظم في قلبي لأني قد عرفت اخيرا أن البابا هو المسيح الدجال، وان كرسيه هو كرسي الشيطان نفسه» (٧٥).

ومع ذلك فان امر روما لم يكن عديم التأثير. لقد كان السجن والتعذيب والسيف اسلحة فعالة لارغام الناس على الطاعة. كان الناس الضعفاء والمتمسكون بالخرافات يرتعبون أمام مرسوم البابا، ورغم وجود عطف على لوثر، فلقد أحس كثيرون بأن الحياة أغلى من ان يجازفوا بها في سبيل الاصلاح، وكان كل شيء يدل على أن عمل ذلك المصلح موشك على الانتهاء.

لكنّ لوثر لم يكن مع ذلك ليخاف. لقد قذفته روما بحروماتها، ولم يكن الناس يشكون في أنه إما أن يهلك وإما ان يرغم على الاستسلام، ولكنه بقوة عظيمة قذف روما نفسها بحكم الادانة وأعلن على الملأ عزمه على تركها الى الابد. وفي حشد من الطلبة والاساتذة والمواطنين من كل الطبقات احرق لوثر براءة البابا والقوانين والاحكام البابوية وبعض المؤلفات التي تناصر سلطان البابا. ثم قال: « لقد استطاع اعدائي باحراقهم كتبي ان يضعفوا تأثير دعوة الحق في عقول عامة الشعب ويهلكوا نفوسهم. فلهذا السبب عاملتهم بمثل معاملتهم وأحرقت كتبهم. لقد بدأ الآن صراع عنيف. كنت قبلا الاعب البابا. لقد بدأت هذا العمل باسم الله، وسيكمل من دوني وبقوته هو » (٧٦).

« كلمة الله معي »

وقد اجاب لوثر على ملامات اعدائه الذين عيروه بضعف دعوته قائلا: « من يدري ما اذا كان الله قد اختارني ودعاني وما اذا كان على اعدائي أن يخافوا لئلا باحتقارهم اياي يحتقرون الله نفسه ؟ لقد كان موسى وحيدا عندما رحل عن مصر، وايليا كان وحيدا في اثناء حكم الملك اخآب، وأشعياء كان وحيدا في اورشليم، وكذلك كان حزقيال وحيدا في بابل... ان الله لم يختر ابدا رئيس كهنة أو اي شخص عظيم آخر ليكون نبيا ولكنه عادة يختار الوضعاء والمحتقرين، فقد اختار عاموس راعي الغنم ليكون نبيا.وفي كل عصر كان القديسون يوبخون الملوك العظام والامراء والكهنة

والحكماء مخاطرين في ذلك بحياتهم... انا لا اقول عن نفسي انني نبي، ولكني اقول انهم يجب أن يخافوا لاني انا واحد وهم كثيرون. وانا متيقن من هذا: ان كلمة الله معي وليست معهم» (٧٧).

لكنّ لوثر لم يقرر أن ينفصل نهائيا عن الكنيسة الا بعدما قام في نفسه صراع رهيب. وفي نحو هذا الوقت كتب يقول: «اني اشعر شعورا متزايدا بمقدار صعوبة طرح الوساوس والشكوك، التي لُقنتها منذ الطفولة، بعيدا مني. ما اكثر ما تألمت لذلك، مع أن الكتاب المقدس هو في جانبي لتبرير وقوفي وحيدا ضد البابا واعتباري اياه المسيح الدجال، وما أعظم المحن التي اجتاز فيها قلبي! وكم مرة سألت نفسي بمرارة ذلك السؤال الذي طالما نطق به البابويون: «هل قصرت الحكمة على نفسك، وهل الجميع مخطئون ما عداك؟ وكيف تكون الحال لو أنك بعد كل هذا كنت أنت المخطئ وأنت الذي قد ورطت نفوسا كثيرة في ضلالتك، وبسببك ستهلك تلك النفوس هلاكاً أبدياً؟» هكذا تحاربت مع نفسي ومع الشيطان الى أن حصنني المسيح نفسه بكلمته المنزهة عن الخطأ، حصّن قلبي ضد هذه الشكوك» (٧٨).

النضال العظيم

كان البابا قد هدد لوثر بالحرمان أو العزل اذا لم ينكر تعاليمه ويتبرأ منها، وقد تمم وعيده. فلقد ظهرت براءة بابوية جديدة معلنة انفصال المصلح عن الكنيسة البابوية، مشهِّرة به كمن هو ملعون من السماء، كما شملت هذه الادانة نفسها كل من يقبلون تعاليمه. وهكذا بدأ ذلك النضال العظيم.

ان المقاومة هي من نصيب كل الذين يستخدمهم الله في تقديم الحق الذي يناسب عصرهم. كان هنالك حق يناسب أيام لوثر، وكان ذلك الحق مهماً جدا في تلك الايام. ويوجد حق يناسب الكنيسة اليوم. فذاك الذي يفعل كل شيء حسب رأي مسرته قد سُر بان يضع الناس في ظروف مختلفة ويفرض

عليهم واجبات خاصة بالعصور التي يعيشون فيها والاحوال التي يوجدون فيها. فلو انهم يقدرون النور المعطى لهم فستنكشف امامهم آفاق اوسع من الحق. ولكن الحق ليس مقبولا ولا مرغوبا فيه لدى السواد الاعظم من الناس في هذه الايام اكثر مما كان مقبولا لدى البابويين الذين قاوموا لوثر. وكما كانت الحال قديما كذلك هي اليوم اذ يميل كثيرون الى قبول نظريات الناس وتقاليدهم بدلا من قبول كلمة الله. والذين يقدمون الحق في أيامنا هذه ينبغي لهم الا ينتظروا من الناس ترحيبا أو قبولا اكثر مما لاقى المصلحون الاقدمون. ان الصراع الهائل بين الحق والضلال وبين المسيح والشيطان لا بد أن يزداد هولا واشتدادا حتى نهاية تاريخ العالم.

لقد قال يسوع لتلاميذه: «لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته. ولكن لانكم لستم من العالم بل أنا اخترتكم من العالم لذلك يبغضكم العالم. اذكروا الكلام الذي قلته لكم ليس عبد أعظم من سيده. ان كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم وان كانوا قد حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم» (يوحنا ١٥: ١٩ و ٢٠). ومن ناحية اخرى فقد أعلن السيد قائلا بكل وضوح: «ويل لكم اذا قال فيكم جميع الناس حسنا لأنه هكذا كان آباؤكم يفعلون بالانبياء الكذبة» (لوقا ٦: ٢٦). ما عاد روح العالم منسجما مع روح المسيح اليوم أكثر مما كان في العصور السالفة. واولئك الذين يبشرون بكلمة الله في طهارتها لا يقابلهم الناس بالرضى اكثر مما كانوا في العصور الخالية. قد تختلف ضروب مقاومة الحق، وقد تكون العداوة مستترة لكونها اشد مكرا وخبثا، لكنّ الخصومة نفسها باقية وستظل قائمة الى انقضاء الدهر.